صُورَةُ الغِرناطِيينَ في رِحلَةِ الحَمرَاء

(للمستشرق واشنطن إيرفينغ)

كتبه

د. صفاء عبد الله برهان

جامعة بغداد/ كلية العلوم الإسلامية

ـــــ مدخل:

يشيعُ في الدراسات الإنسانية الراهنة الكثيرٌ من المفاهيم، التي تجسّر المسافة بين المجتمعات المتباينة في خصوصياتها المحلية، ما يؤدي إلى الإطلاع عليها، واستثمارها في عملية فهم الآخر والتواصل معه. مع الأخذ بظروف نشأة هذا التواصل ومعرفة المجتمع الآخر، ولاسيما فيما يخصّ الصورة الثقافية، و حتمية السير خلف الظروف المختلفة. ومن هنا تصدر أهمية الأدب المقارن في تنوع حضوره المؤثر، حيث اكتشاف الحلقات التي تنماز بها آداب المجتمعات، والقيمة نحصل عليها من ديمومة التواصل بين الحضارات. وبذلك كانت للصورة الثقافية أهميتها في رسم الكيان الاجتماعي للحضارات، ومنها الحضارة الغربية، بعد نجاح نهضتها وتبلور هويتها الحديثة، التي قسّمت ما للآخر لاستعماره؛ بحسب ثقافة التفوّق التي عملت على إلغاء المنابع المشرقية، انطلاقا من مبدأ الأنا بعد أفول العرب بالأندلس، وانطلاق الأسبان في رحلات اكتشاف العالم الجديد.

لقد عرف عن (أدب الرحلات) بأنه صورة للحياة الثقافية المواشجة بين المجتمعات المختلفة؛ لأنها تقيّم أحوالها، وتحفّز الأديب في استثمار قضاياها، في عملية مواكبة الصحوة الغربية. ولعلّ المستشرق (واشنطن إيرفنيغ)[1] خير من يمثل رؤية الآخر الغربي للمجتمع الغرناطي، الذي اهتمّ به قائلا: (كتبت هذه الحكايات والقصص كتابة أولية،

---

[1] من كبار المستشرقين الأمريكيين، ولد بنيويورك في سنة 1783، وظهرت بواكير أعماله في سنة 1802. عمل بالمحاماة ولكن هجرها، نشر كتابه الأول (تاريخ نيويورك منذ بداية العالم حتى نهاية الأسرة المالكة الهولندية). وأثناء وجوده في أنجلترا وضع (الكتاب القصصي لجفري كرايون). مكث في أوروبا حتى سنة 1832، وازداد اهتمامه بـــتراثها الشعبي فكتب (حكايات رحالة). وفي سنة 1826، مثّل بلاده في إسبانيا، وشرع في الكتابة عنها وعن الإسلام، مثل (غزو غرناطة)، و(الحمراء)، و(حياة النبي محمد)، وقد عاد إلى بلاده في سنة 1823، وفيها خرج في رحلة سمّاها (جولة في المروج). وتحوّل من الأدب والقصص إلى كتابة التاريخ والتراجم الشخصية. وفي عام 1842 عين وزيرًا مفوضًا باسبانيا، ثم عاد إلى سنيساید حيث عاش إلى آخر حياته حيث سنة 1859، وفيها أكمل كتابه (حياة جورج واشنطن). ينظر: الحمراء: 9_15.

حين إقامتي بالحمرا، ثم أضفت لها فيما بعد ملاحظاتي التي سبق أن دونتها أثناء رحلتي إلى هناك. آخذا بعين الاعتبار المحافظة على ألوان النظرة المحلية؛ لأظهر هذا العالم الأصغر الأندلسي _حيا ومعبرا تماما_ كما ساقني حسن الحظ لأن أجد نفسي فيه؛ ولأن العالم خارجه ليست لديه إلا فكرة ناقصة عنه حاولت أن التقط _وأبرز_ وأعبر عن شخصيته بنصفيها الشرقي والإسبان).[2]

كانت رحلته صورة لهذه المجموعة البشرية المتفرّدة، التي يصعب تمثيلها ثقافيا واجتماعيا؛ لأنها احتوت مسائل لفتت انتباه العقول المهتمة بأدب الرحلات، حيث الموازنة بين حضارات الشعوب المتداخلة. علاوة على كشفها عن الكثير من المفاهيم الأساسية المغلوطة عن الشعب الإسباني في إقليم الأندلس، فكان أن عدت أعماله حجة، بعدما (تفوّق على كل الكتاّب العرب والأسبان بإعطائه للعالم تاريخ هؤلاء بشكل منهجي عقلاني غير متعصب ومنظم، وإذ يحتل هذا الكاتب الفذ عند الأميركيين المنزلة نفسها التي يحتلها شكسبير عند الإنكليز).[3]

وبهذا التفرّد انتشرت دراساته وتلقفها الباحثون واعتُمدت مرجعًا مهما، في الفكر العالمي، إزاء العدد الكبير من الكتب التي ظهرت في عصره؛ بفضل تجرّده التام وابتعاده عن الاجترار والأساليب النمطية. وقد زان ذلك تجربةٌ كبيرةٌ وثقافةٌ واسعةٌ، فجاءت (كتابته مزيج من الفلسفة وعلم الاجتماع والتاريخ والأدب، وبمثل هذه المرآقي الصعبة، التي قلّما يستطيع قلم أن يوفيها حقّها واحدة واحدة، كما استطاع قلم إيرفنيغ، سطع بها أي سطوع في الأدب والفكر العالمي).[4]

وفي ضوء هذه المعطيات المتنوعة، آثر الباحث تناول رحلة (الحمراء) في محاورة صورة المجتمع الغرناطي[5]، وما تخرجه من أدبيات تواصلية مع أشطار ذلك المجتمع، وذاته المتفاعلة مع بعضه ومع الآخر الغربي. لقد عرضت رحلة الحمراء صورة الآخر في أفق

---

[2] المصدر نفسه: 23.

[3] أخبار سقوط غرناطة: واشنطن إيرفنيغ: 49.

[4] المصدر نفسه: 51.

[5] ترد على لسان الدارسين للثقافة الإسبانية وفي الإعلانات السياحية الأوروبية، عبارات تدل على اختلاف اسبانيا عن العالم الغربي، ممزوجة بكثير من السخرية والتحقير مثل Spain is different. أو (إفريقية تبدأ بجبال البرناس الفرنسية)؛ بسبب ما تحمله من عناصر سامية قوية، ينظر: أثر الإسلام في الأدب الإسباني: د. لوثي لوبيث بارالت: 31.

تعبيري، يكشف عن علاقات الغرناطيين المحلية والخارجية؛ لأنها أرسلت مواقف المجتمع المحلّي بعين الناقد الموضوعي، الذي يحسّ بما يعيشه أولئك القوم، بخلاف الجهود التي بذلها كتّاب غربيون، بخاصة أن معظمهم لم يتحرر من نزعته الشخصية. وختاما فقد جاءت خطة البحث في خطوات متتابعة، وهي: تأصيل صورة الآخر، وبعدها تناول صور عن المجتمع الغرناطي، مثل: صورة السلطة، والخارجون على القانون، والفقراء في غرناطة، وصورة المرأة الغرناطية.

ـــــ تأصيل صورة الآخر:

صورة الآخر من المفاهيم الخصبة في الدرس الأدبي، وقد استثمرت ما يجري من تطورات مختلفة لتكوين مقاربة معرفية، تدفع بهذا الدرس إلى اكتشاف الأبعاد التصويرية للأنساق الداخلية والخارجية في المجتمعات، بعنونة دقيقة للمشاريع الأدبية المرتبطة بهدف معرفة الآخر، وتوظيف آدابها لأغراضه الأساسية التي تلاحق الصورة الذهنية للذات والآخر في وقت واحد ؛ وعليه (فإن أية صورة للآخر هي انعكاس للأنا سواء أكانت تجسّد اختلافا (الآخر مقابل الأنا) أم لقاءً (الآخر يشبه الأنا) وبذلك تعد هذه الصورة فعلا ثقافيا، يقدّم تفاعل الأنا مع الآخر، فنعايش تفاصيل الحياة الاجتماعي والفكرية والروحية، بكل صدق وعفوية).[6] لقد عرف الأدب المقَارن صورة الآخر، نتيجة الاحتكاك بمفاهيم الشعوب المختلفة، ما أدّى إلى تداخل الأمزجة المختلفة في النظرة إلى منجز الآخر، بعد انشطار المجتمعات في ثقافتها وسلوكها، بما غذّى الأدب بفاعلية كبيرة، دعته إلى الالتزام أكثر بالقضايا الإنسانية الكبرى عند تعاطيها، وبهذا ترى الدكتورة ماجدة حمّود: إننا (أحوج ما نكون إلى دراسة الصورة ليس فقط بصفتها أحد فروع الأدب المقارن، وإنما لتؤسس تفاهما بين الثقافات المتنوعة، فيزداد لقاء الإنسان بأخيه الإنسان، عندئذ تزدهر القيم الخالدة، التي تنسج المحبة والأخوة والخير بين البشر، فتنأى الحروب والعنصرية عن عالمنا، ويعيش الإنسان في عالم أكثر إنسانية).[7] وطبيعة الأمر تتعلّق بمستجدّات العلاقات الثقافية، التي تحدد العلاقة بين الأفراد ضمن مجتمع واحد، ومن ثمّ مع المجتمعات الأخرى المختلفة عنها ثقافة وأسلوبا. ومن هنا ندرك أن السعي إلى تأصيل صورة الآخر،

---

[6] صورة الآخر في ألف ليلة وليلة: د. ماجدة حمّود: 107.

[7] صورة الشرق لدى هارمان هيسه: 73.

يتم من خلال النّظر إلى ضرورة التّوفيق بين معطيات التّراث ومستجدّات المجتمعات المتمدنة. ولم يكن الأفق الأمريكي الحديث بمنأى عن تلك المحاورة الثّقافية، بل أضاف عليها مما وصل إليه من مناهج نظرية وضعتها حيز التنفيذ، فأخضع الرحلات لمقاربات أدبية متنوعة، بيّنت أن الإنسان (فردا أم جماعة_ لا يمكنه أن يعيش خارج بيئته أيا كان الزمان أو المكان، ولذلك فهو مرتبط بالوسط العالم وتغيراته المتسارعة على كل صعيد ومستوى. وإن حدث ذلك وعاش في عزلة، انتهت به هذه العزلة إلى العجز في تطوير حياته وأدواته وحاجاته، ومن ثم وقع في الخلط والخلل، والزيغ والجهل والنقصان).[8]

ومن المأمول أن تستمد أدبية صورة الشعوب مقوماتها من مدلولات أخلاقية وسلوكية، ويمكن إجمالها في حركة النهضة الغربية، وهو ما ألف عند إيرفنيغ، الذي أرسل تأملاته في رحلته المُعالِجة لصور ذلك المجتمع. فكان الرجل ذا عقلية متجرّدة تؤمن بأن (استغلال الانفعالات البشرية بشكل مكثف، والتوجّه بالصورة إلى العواطف لا إلى العقول، أساس راسخ في تكوين الصورة وترويجها. لذا لابد من دراسة نفسية الشعوب التي نرسمها).[9] وعلى هذا التصوّر الذهني تكون عملية دراسة المتغيرات في الصورة الثقافية للآخر، ضرورة ملحّة في وضع النتائج التطبيقية التي توازن بين مجتمع وآخر، ما يشكّل موقفا حاسما في المواقف الوظيفية للباحثين، وهو ما يتأكّد لدى معرفة نظرة الذات نحو الآخر المختلف، وطريقة تعامله مع هذا الاختلاف، واستثماره في قصدية ممنهجة تؤلف سمات المرحلة المشتركة، في لغة تستقري (مواقف الأفراد، واستجابتهم للأحداث، والمجريات؛ لكونها تمثّل مستعملها، وتصرّح بموقفه نحو ما يعبّر عنه من مفهومات، ورموز لترجمته إلى صفات، وأحكام قيمية تنقل استحسانه أو نفوره).[10]

وعليه تقدّم شهادة بحقيقة التماسك الثقافي مع تنوع الاتجاهات النظرية، وضرورة الربط بين عمليتي الاختلاف والائتلاف، إذ (لا تشكّل الحضارة الغربية، التي تفرض نفسها كنموذج قيمي للمجتمعات الأخرى هما ثقيلا لأفراد العينة، فهم لا يدخلون في صراع مع مصادرها وآلياتها ومؤسساتها، وهم لم يصلوا إلى حد الأخذ بالحضارة الغربية أو الانبهار بها).[11]

---

[8] ثقافة الحوار مع الآخر: د. حسين جمعة:11.

[9] صورة الغرب في الأدب العربي رواية فيّاض لخيري الذهبي نموذجا: د. غسّان السيد: 95.

[10] المصدر نفسه: 96.

[11] الأنا والآخر ودورها في رسم وتحديد العلاقة بين الوطن العربي والغرب: د. إياد عمّاوي: 12.

وليس بعد ذلك إلا أن تظهر هوية الآخر أداةً مناسبة لتصوير الحقائق، التي تكتشف في الارتحال الذوقي؛ لاختراق الغموض لـــ(يدرك المثقف أن المعرفة لا هوية لها، وأن دوافع إبداع الجمال تكاد تكون واحدة في كل اللغات).[12]

وهكذا ينشأ لدينا نص أدبي مقارن ينتج في عملية شعورية، تخصص دلالات مشبعة بالتقاليد والأعراف، للآخر المنظور إليه على صعيد الكتابة، التي تحدث تحقق تفردها عند إيرفنيغ، بالاعتماد على إيقاع ذلك المجتمع. الذي انتزع الأزمة الثقافية للمجتمعات الغربية، نحو هذا المجتمع الذي تجاوز الازدواجية الاجتماعية بطبيعته الفطرية، وكانت صورته ذات منحى مهم في فهم الآخر، بحسب الأفق الذهني والسلوكي المواكب لسيرورة المجتمع الغرناطي وقتذاك.

ـــــ صورة السلطة:

ظهرت صورة السلطة الغرناطية في رحلة الحمراء بنحو متأرجح إلى حد كبير، سواء ما كان منها يمس الحاكم أم القائد، فكانت صفحة للبيئة الغرناطية التي عانت الصراع واضطراب الأمن، وقد أبرزت في كثير من معاييرها السلوكية، الحديث عن العلاقات المفترضة بين القائد والحاكم وسكان غرناطة والخارجين على القانون. وهي منزلة لم يدركها حاكمها الذي كان يأمل بتمثيل سلطاته، عقب كل تحوّل في مرحلة جديدة، بخاصة فيما يتعلق بطبيعة الصراع بين المجتمع والرفض المطلق للسلطة القانونية أو القبول بها، فأظهرت رحلة الحمراء اختلاف الرؤى, التي شهدها المجتمع الغرناطي أمام الخلل الناتج عن تعدد السلطة، وازدواجية المخططات في اختراق الأمن الغرناطي والسلطة المحلية معا. فمن تلك المشاهد الواضحة ما يبرز عند لقائه قائد إحدى المجموعات الحارسة، يقول: (تناول قائد المجموعة الحارسة العشاء معنا. وهو رجل مليء بالحياة والمرح الأندلسي، وأخبرنا أنه كان في غزو لشمال أفريقيا، ثم أعاد على مسامعنا مغامراته بالحب والحرب بقصائد مفعمة، أضاف إليها مزيدا من التعبير بحركات يديه وعينيه البراقتين. أضاف بأن لديه قائمة بأسماء كلّ اللصوص في البلاد، وعرض علينا رجاله للمرافقة قائلا: إن واحد منهم كافٍ لحمايتكم أيها السنيور. فاللصوص يعرفونني ويعرفون رجالي. وحيث يظهر واحد

---

[12] صورة الآخر في التراث الجاحظ نموذجا: د. ماجدة حمّود: 119.

منا يكفي لإشاعة الرعب في قلوبهم عبر كل السييرا فشكرناه على ما قدم، وأكدنا له بنفس أسلوبه بأننا وبحماية مرافقينا لن خاف قطاع الطرق في الأندلس).[13]

تنطق الصورة عن ثقافة ذلك القائد المتنوعة، المصحوبة بلغة الجسد التي يحاول من خلالها، تأكيد ما يعرضه من مغامرات في الحب والحرب معا، ويدرك من خلالها مفهوم الخطاب الذي تنتجه صورة (القائد)، التي تترك بدورها الانطباع المؤثر، لمجموعة المشاعر والأقوال التي يتباهى بها ذلك القائد، فيغدو منها غاية اللقاء مع هذه الشخصية المرحة والواثقة من نفسها ومن جنودها، في نزعته المعرفية التي تعمل على تحريك مفهوم السلطة، الحافظة للأمن في ذهنية الوافدين، ما يسكّن من روعهم إزاء ما يسمعون عن اضطراب الأمن، فالقارئ يدرك أن هذا المرح هو صورة للطمأنينة التي يزرعها القائد بعبقريته الخاصة، ويجد فيها البعد النفسي لانطباعه ومشاعره الذاتية، التي تزيح عوالم الخوف المجهولة، فما عليه غير البوح بالكلمات والتعبير بالحركات، التي وجد فيها رمزا للقدرة والسلطة، والتي تواري العجز الأمني المتأصّل وقتذاك. بل زاد من ذلك عندما سخر من اللصوص بحيث وضع واحدا من رجاله أمام مجموعة منهم، ما يتوّلد معها انطباعا إيجابيا يكسر صمت الوافدين، بتصديق أقواله وترديدها، بما يغني عن الكثير من الكلام، في محاولة مقابلة من الوافدين لدغدغة مشاعره، التي أجادت التعبير بعلاج واقعي في داخلها مع هذا القائد، ويدرك على وفقها أنه (يجب أن تدرس الصورة الثقافية باعتبارها مادة أنثروبولوجية وممارسة لها مكانتها ووظيفتها ضمن العالم الرمزي (الخيالي) الذي لا ينفصل عن أي مؤسسة اجتماعية أو ثقافية، لأن المجتمع يرى نفسه، ويعبّر، ويحلم، من خلال هذا العالم الرمزي).[14]

وهكذا لم تشهد المرحلة التي زار فيها إيرفنيغ الحمراء نوعا من السلطة القوية، على الرغم من أن هذه السلطة، تمثّل الحامي لما ورثوه من مشروع حضاري، أسهم في صياغة المعارف الإنسانية في أوروبا عامة وإسبانيا خاصة؛ لذلك عاد إلى الماضي القريب حيث سلطة الحمراء القوية ساردا: (كان يحكم الحمراء حاكم عرف عنه أنه فارس عتيق شجاع، ولأنه فقد إحدى ذراعيه في ساحات القتال فقد كان يعرف، عموما، باسم (الحاكم وحيد الذراع)، والحقيقة، كان الرجل يفتخر بأنه جندي قديم وكان شارباه ينفتلان عاليا حتى عينيه، حذاؤه من أحذية الحملات العسكرية، وعلى جانبه سيف طليطلي طويل كالسفود ومن

---

[13] الحمراء: 32.

[14] صورة الشرق لدى هارمان هيسة: 76.

جيب صدره يبرز منديله الجيبي، علاوة على ذلك، فقد كان شديد الكبرياء، شديد الحرص على الشكليات متمسكا بكل ماله من امتيازات وحقوق منصب وتحت إشرافه، تمت المحافظة بدقة على حرمة الحمراء وعصمتها باعتبارها مقرا للملك ومنطقة للسيادة الملكية، فلا يسمح لأحد بدخول القلعة بسلاحه، حتى ولو كان ذلك السلاح سيفا أو عصا، إلا إذا كان من مرتبة معينة، كما كان على الفارس أن يترجل عند البوابة ويقود حصانه من لجامه).[15]

هنا تظهر هيبة السلطة في ضرورة أن يأخذ (الحاكم) بسنة الحكّام الأقوياء، في جوانبها المادية والمعنوية والشكلية حتى، ما يضمن معها معرفته الكبيرة بصميم عمله، واكتراثه بواقع الحمراء التراثي والمعاصر، بحيث لا يتحول إلى مسيء لسنة الحكّام الكبار الذين تسلطّوا على كرسي غرناطة من العرب، من حيث يدري أو لا يدري. ويبدو جليا أن المهم من ذلك كله مراعاة المقاصد والقيم السلطوية، إلى الحد الذي أصدر توجيهات حتمت الائتمار، باحتساب غرناطة (مقرا للملك ومنطقة للسيادة الملكية)، وضرورة عدم الغفلة عن ذلك من رعاياها (الأعلون) مرتبة وكذلك (الأدنون)، ومنها حرمة حمل السلاح وإن كان حقيرا وحرمة دخول الفرسان ذوي الشأن المرموقة، وهم يمتطون صهوة جيادهم، بما يعزّز حضور هيبة الحاكم وأهمية غرناطة، ومن ثمّ الإسهام في صياغة ثقافة السلطة الحازمة والواعية.

ويعرض لنا إيرفنيغ صورة رشيقة لأريحية حاكم غرناطة، عندما استضافه في داره، ما يعني أن ذلك الحاكم قد قطع شوطا كبيرا، في إحداث فرز حقيقي عند بناء سلطة قوية ومضيافة، كما يظهره النص: (إذا كنتم ترغبون بالسكن هناك فشقتي في الحمراء تحت تصرفكم ؟! ولأننا نعرف أن محط الحديث عند الإسبنيارد، هو ضرورة إخبار مضيفه أن بيته هو بيته كمجاملة عامة، يجب أن يرد عليها بعدم القبول، وكذلك عدم قبول ما يعجبك في منزله حين يقدمه لك فورا. كدلالة على كرم عندك كدنا أن نفهم من عرض الحاكم لشقته الملكية هذا النحو. لكننا كنا مخطئين. إذ إن الحاكم كان يعني ما يقوله حين أضاف: ستجدون غرفة غير مفروشة، ولكن العمة أنطوينا المسئولة عن القصر يمكنها أن ترتبها لكم، كذلك ستعتني بكم طوال إقامتكم، فإذا نحن رتبنا الأمر معها سيكون قصر الملك شيكو تحت تصرفكم).[16]

---

[15] الحمراء: 279.

[16] الحمراء: 62.

الذي يبدو جليا أن هذه الصورة ترفض السخرية والكذب عند هذا الحاكم، الذي يأنف من التعارض بين ما يقوله وما يفعله، بعدما بان لإيرفينغ ورفقاؤه خطأ توهمهم نحو حقيقة اقتراحه. عندما انطلق انفعاله المتعايش مع المكوّن الغربي المتمثل بالأمريكيين، من بؤرة الأريحية الأندلسية المهيمنة على سلوكه، بمشاركة الغربيين منزله وهو ما مثّل ثقافة غريبة عنهم؛ إذ ليس بوسع كلّ الحكام القيام بذلك، ومنها ندرك طبيعة ثقافة السلطة الغرناطية، بوصفها أداة تواكب الحاجيات المادية والروحية. وتثبت عدم الازدواجية في الفكر والسلوك، بما هو أصيل من تراث الأمة الغرناطية، وما هو طارئ غريب تعيشه الذهنية الأمريكية.

كذلك أبرزت رحلة الحمراء صورة التعارض والتنافس على السلطة الغرناطية بين القائد والحاكم، يقول إيرفينغ: (غضب القائد العام، هو الذي يأمر ولاية بكاملها أن يكون لديه موقع مستقل كالحمراء وسط مناطق نفوذه ذاتها. وقد صار الأمر أكثر إثارة للغضب عند حدوث قصتنا هذه، نظرا لغيرة الحاكم العجوز الشديدة وقابليته السريعة للغضب، هو الذي كان يشعل نارا لدى أقل سؤال عن سلطاته وصلاحياته، ونظرا أيضا لحالة التشرّد والانحلال التي كان يتّصف بها الناس الذين راحوا يعششون شيئا فشيئا في القلعة، وكأنهم في ملجأ أو مصح، عائشين نوعا من حياة التشرّد و الرعاعية، قائمين بالكثير من أعمال السلب والنهب على حساب سكان المدينة الشرفاء. إذن كان ثمة نوع من العداء ووجع القلب الدائم بين القائد العام والحاكم، لعل أقسى ما فيه بالنسبة إلى هذا الأخير، باعتباره أصغر الجارين المتنفذين هو أن يكون صعب الإرضاء متشددا فيما يتعلّق بالشرف والكرامة).[17]

غير خافٍ ما في هذه المشاحنة من نوايا مسبقة؛ لتكثيف الاعتزاز بالسلطة، بما يجلب معه خطورة خلق تدهور، في مجتمع يقوده حاكمان متنافسان، اختلفا في كثير من الميول والقدرة، بخاصة الحاكم الذي ظهر منهوك القوى، إلى الحد الذي شحبت هويته السلطوية، وهو ما يخدش كرامته بخاصة إذا ما كان الأمر يتعلّق بخروج الأمر من يديه، بمجموعة من المتشرّدين الذين لا طاقة له بهم، ولم يكن له إلا الكبرياء وسرعة الغضب؛ لعله يسترجع الهدف المركزي، وهو إعادة الذات والهوية لهذا الحاكم العجوز، المبتلى بقائد منافس ورعية رعاع، عوض السقوط الكامل في إقحام نفسه، بمناوشات مع المصعرين خدهم للأوامر والنواهي. وهكذا نتعرف على هذه الصورة النمطية لذلك الحاكم، ولكن مع فرق يسير يستنبط من طبيعة المكان وخصوصيته التاريخية، التي تخلص إلى الهاجس الخلقي، الذي يحاول إعادة نتاج سيرة سلفه في أدب السلطة القوية، ويبدو أن هذا الاختلاف

---

[17] المصدر نفسه: 280.

كان مدعاة للغرناطيين، بتجاوز الخلافات التي تنخر التراث الروحي، ضمن بنية الثقافة الإسبانية.

ـــــ الخارجون على القانون:

تنبع النظرة السيئة نحو أولئك الخارجين على القانون، من طبيعة تفكيرهم وطريقة سلوكهم الشخصية، على حساب المنفعة العامة، وقد ساعد على ذلك ما عرفته إسبانيا من أوضاع صعبة، فقد (كان القرن التاسع عشر في إسبانيا قرن اضطراب وانكماش، لم يلعب ملوكها فيه الدور الرائد الذي توقعه منهم الأسبان).[18]

وتصوّر رحلة الحمراء مواضيع محددة، تبرز الحضور الكبير للخارجين على القانون في غرناطة من قطّاع طرق ولصوص ومهربين، وتعلن التركيز في صور المنهجية الفكرية والسلوكية التي كانت تحكمهم، وما ينشأ من سنن جسّدت الأغراض الخاصة لتلك العناصر، التي أوضحت أهدافها وأساليبهم المبتكرة، فوصفها بمفردات ذات قيمة اجتماعية ؛ لأنها كانت (متأتية من أنها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التي تركها في نفسه).[19]

لقد أبرز إيرفنيغ في كثير من صور الجهود الذاتية، للحفاظ على الأمن الشخصي والعام من خطر لصوص غرناطة، ومنها ثقافة حمل السلاح، التي غدت ظاهرة واسعة ومألوفة بين أهل الحرف والأثرياء، الذين وفّروا الأمن لأنفسهم بوسائلهم المتاحة، ما يؤكّد خروج غرناطة عن سلطة القانون، فبان لدينا الإسهام الشخصي في الحفاظ على الأموال، بخاصة عند الأثرياء الذين يمتنعون عن الخروج بمفردهم، فقد ذكر لنا أن (الاستعمال الواسع للسلاح في هذه البلاد يوضّح بشكل بيّن جدا عدم الأمن العام فيها. فللفلاح في الحقل، وللراعي في السهول دائما خنجر وغدارة وبندقية. ومن النادر أن يذهب الأثرياء إلى السوق بدون مرافقة خادم مسلّح. وحتى أقرب رحلة يجري التهيؤ لها بما يشبه الذهاب إلى الحرب).[20]

---

[18] انبعاث الإسلام في الأندلس: د. علي المنتصر الكتاني: 260.

[19] فن المقال: د. محمد يوسف نجم: 110.

[20] الحمراء: 26_27.

ولا يحتاج القارئ أن يجهد نفسه في مناقشة هذه الحال المأزومة؛ لأن غرناطة في تلك المدة كانت تشهد تراجعا في الأمن؛ نتيجة إهمال إقليم الأندلس، الذي كان يمثل مصدر ثورات وإزعاج للبلاط الملكي الإسباني، وكان من البديهي أن لا يشعر أحد بالطمأنينة، سواء كان مالكا أم مملوكا، زد على ذلك تراجع الإمبراطورية الإسبانية في ذلك القرن، وخسرانها أكثر مستعمراتها، ومن ثم كانت يد اللصوص تطال طبقات المجتمع كافة، بما يسد حاجاتهم الأساسية، ملغين بذلك التمايز الطبقي، وإن بدا على أشده مع الأثرياء المصحوبين بخدمهم المسلحين، بل يزداد التأزم عند الابتعاد عن مركز غرناطة. حتى أمست خصوصية تنفرد بها القوافل، التي تنتقل من جبال البرنيه شمال إسبانيا إلى جبل طارق، انطلاقا بما رصده إيرفنيغ، وهو يصف مزاج التنقل الخاص، قائلا: (إن المزاج الخاص الذي انتجته الطرق حين الترحال، يشبه إلى حد بعيد ما يحصل في قوافل الشرق، حيث تلحق بها المرافقة المسلحة في يوم محدد؛ لذلك يقلل المسافرون الإضافيون عددهم، ويعتمدون على قوتهم الذاتية. وبهذه الطريقة البدائية تتحرك التجارة في تلك البلاد، من جبل البرنيه _البرنس والآوسترا إلى البكازارا والبقصار والسيرادي روندا حتى جبل طارق. حيث على المسافر أن يعيش عيشة قاسية).[21]

وحقيقة هذا التدهور لم تكن جديدة على الأسبان، ولكن صورة الدهشة في الوعي الغربي، تبرز بصورة كبيرة من هذا الاختلاف في الصورة الواقعية، التي لم تألفها ذائقة إيرفنيغ الأمريكية، ما دفعه إلى متابعة حثيثة لرصد هذا الاختلاف الكبير، الذي عاشه إحساسا نكص على الذاكرة المختزنة عن أحوال القوافل المشرقية، والغريب فعلا في هذه الصورة أن انعدام الأمن كان يشمل أغلب التراب الإسباني، وهنا يعرض علينا إيرفنيغ تساؤلا مهما، حول تفشّي ظهور نوبات الاضطراب في أوقات من تاريخها، وحول البطالة التي كان يعيشها جزء من الشعب الإسباني عامة والغرناطي خاصة، الذي هو نتاج السياسات الخاطئة للبلاط الملكي، فيعبّر عن الوجدان المحلي في تجلياته المستمرة، ومدى محدودية صورة المدنية الغرناطية، ومن هنا (تفيد الصورة الأدبية في توسيع أفق الكتابة والتفكير والحلم بصورة مختلفة فتغني الشخصية الفردية، ويتم التعرّف إلى الذات وإلى الآخر، هذا على المستوى الفردي، أما على المستوى الجماعي فإنها تفيد في تصريف الانفعالات المكبوتة تجاه الآخر، أو في التعويض عن أوهام المجتمع الكامنة في أعماقه وفهمها، كذلك تبين الصورة المغلوطة المكونة عن الشعوب، فتسهم في إزالة سوء التفاهم،

---

[21] المصدر نفسه: 27.

وتؤسس لعلاقة معافاة من الأوهام والتشويه السلبي والإيجابي، وذلك حين تعطي حقه كما تعطي الذات).[22]

ولا يفوت الباحث التذكير بأن هذه الفئة من الخارجين على القانون، كانوا ممن يمتهنون هذا السلوك بحسب ما تدفعه غرائزهم، ولم يكن الدافع له هو الفقر الذي ربما عاشوه؛ إذ إن كثيرا من الفقراء قد أنفوا السير في هذه السبيل، كما ستبديه السطور القادمة، ولكن الأمر هنا يتعلّق بذهنية فُرضت على السلوك الجمعي، لهؤلاء الخارجين الذين كانوا في سعي متواصل لتطوير قدراتهم؛ لإدخال الرعب في قلوب فرائسهم من التجّار والأغنياء والفقراء على حد سواء، فجاء سلوكهم صدى لما أنتجته التحوّلات، التي عاشتها إسبانيا في العصور الوسطى، وصورة لثقافة الصراع التي اكتنزتها غرناطة في شيخوختها، وهي تواجه ظروفاً صعبة بعد طرد المسلمين وبوار الحراك التجاري والزراعي، النشط في أيام الحكم العربي[23]، ما جعل الحوادث السلبية تقفز في المشهد الغرناطي؛ لتتحول إلى عقد نفسية نفثها أولئك المصدورون. وفي ضوء ذلك تظهر أهمية أخذ الحيطة المستمر، والتـــأهب التام للظهور المفاجئ لهذه الفئة، كما قال إيرفنيغ: (وتظل أسلحة هؤلاء الرجال بأيديهم، أو معلقة على سروجهم استعدادا لإشهارها بسرعة مستميتة؛ لأنهم يحملون معهم كل ثروتهم دوما، كذلك يعتمدون في حمايتهم على عصبتهم ضد الخارجين على القانون (الباندوليرو) الذين من طبعهم الهجوم فرادى بخيولهم الأندلسية السريعة، معتمدين على تسلحهم التام، ومناورتهم حول القوافل، لانتهاز فرصة مناسبة للهجوم).[24]

ومن هذه الصور السلبية لطبيعة الضياع الغرناطي، يُدرك التهديد الكبيرالذي يمسّ أمن الغرناطيين، ما يجعلهم دائمي التسلّح؛ خشية المفاجآت التي يصنعها (الباندوليرو)، بإدخالهم الحيرة والقلق المستمرين عليهم؛ بسبب حملهم الدائم لثروتهم، ما يعني عدم وجود مكان آمن يودعونها فيه، فهي ترافقهم أينما حلّوا ونزلوا، ما يسيل لعاب اللصوص، الذين

---

[22] صورة الشرق لدى هارمان هيسة: 75.

[23] كانت الأندلس مضربا للأمثال في الحركة الاقتصادية، ومنها أن أرضها أخصب بلاد الله، حتى وصل الحد إلى أن الفلاحين كانوا لا يتركون قطعة أرض إلا ويغتنمونها للفلاحة، بل يتسلقون أراض وعرة في الجبال ويجعلونها مفيدة، ويجلبون الماء إليها بطريقة هندسية أعجزت الأسبان، الذين كانوا يجهلون ما يدركه العرب، وكانت البحرية الأندلسية تحمل منتجاتها لأنحاء العالم، وقد اعترف الأسبان بخطأ طرد العرب، وتدهور الفلاحة والتجارة بغرناطة خاصة، حتى قيل: إن الصدمة التي أصيبت بها ثروة إسبانيا كانت كبيرة ولم تجبر، ينظر: محنة الموريسكوس في إسبانيا: محمد قشتيلو: 107_ 113.

[24] الحمراء: 27.

كثيرا ما يوقعونهم في المحذور، فشكّلت ثقافة التسلّح ضرورة اجتماعية إزاء الواقع المرير، حتى سرى ذلك في وعيهم المخزون، وبخلافه يكونون نهبا لأولئك الفرسان على الخيول الأندلسية، التي تلاحقهم وتؤشر معها أيضا ارتجاف أوصال الغريب، الذي يحاول تجنب مجموعة من المحذورات التي أدركها. مع الأخذ بالحسبان صورة أخرى كانوا يستحضرونها، وهي حتمية مقابلة قطّاع الطرق، وضرورة التنبّه إلى جريرة استغفالهم بعد مروره بالمناطق الجبلية، والممرات ضيقة، التي كانت أفضل مكان للصوص وقطاع الطرق. يقول: (لم نأخذ معنا إلا الضروري من الثياب والغذاء والمال لمثل هذه الرحلة، مع بعض الدولارات الإضافية لدفعها كخوة لقطاع الطرق لإرضائهم. حيث أن المسافر الفارغ اليدين الذي يقع بين أيدي هؤلاء السادة سيء الحظ جدا. حيث يعتبرونه وكأنه يغشهم ويحتقرهم، فهم أولا وقبل كل شيء لم يخاطروا ضد القانون كي لا يحصلوا على أي شيء).[25]

ويبدو أن المتعقّلين من المسافرين، كانوا على دراية تامة من فلسفة أولئك اللصوص، فاتخذوا سنة دفع الفادح بما يرضيهم، ليمكّنهم من تجاوز الغضب الكبير، الذي يلحق (الفارغ اليدين)، بما يخالف المقولة المشهورة (المفلس بالقافلة أمين)، فهم لا يهتمون بفعل الفقر وإن كان حقيقيا، ولا يأمل الرأفة منهم وإن كان صادقا، بل يجب اجتناب ذلك، وعليه أن يحمل ما يطفئ غضبهم وينقذ نفسه؛ لأنها من أولويات حرفتهم التي تنزل غضب السلطة عليهم، والتي يتحتم العمل بها من قبل المسافرين، وعليه فإن الراغب في العدول عنها، يحتقرهم ويمارس الغش عليهم، ولا يراعي مقتضيات حالهم. وبذلك فهو لا يحسن التعامل مع فلسفتهم، والخروج على سنتهم، وحقيقة مهمتهم، التي خاطروا بأنفسهم من أجلها.

وما يلفت الأنظار في صورة الخارجين على القانون، صورة طريفة لاستثمار العلاقة الزوجية في مشهد غزلي، يخالف الحقيقة التي يحملها أولئك المهربون، يقول: (رحت أراقب إحدى الجميلات الدعجاوات. وهي تخرج من شرفتها متشّحة بلباس حريري، وتتزين بالورود، وتحمل رسالة من فارس أسمر جميل، يأتي دوما إلى تحت شباكها. وأراه أحيانا في الصباح الباكر، يسرق النظرات ويتبادلها معها، ثم يربض في الزاوية. ربما بانتظار إشارة منها ليدلف إلى المنزل، وفي الليل أسمع نغمات غيتار يصاحبها حركة في الشرفة من زاوية إلى أخرى فيهاــ لذلك تصورت قصة غرامية، تشبه قصة ألمافيفا ولكن مرة ثانية

---

[25] الحمراء: 29.

تبينت أن العاشق هو زوج السيدة وهو من الخارجين عن القانون، وكل الإشارات من أجل تمرير بضائع مهربة).[26]

وهنا تبدو طرافة عمل هذين (العاشقين)، حيث شروع المرأة بدور المعشوقة التي تنتظر حبيبها على شرفة البيت، واستمرار المشهد الدرامي الجميل في أوقات معلومة؛ لأنه يسعى إلى تشتيت الأفكار والأنظار معا، من أجل عدم التمييز لحال المرأة والرجل معا، ولم تشأ أن تميط اللثام عن العلاقة الحقيقية بينهم، التي تواري حقيقة (التهريب)ــ فكان أن شكّل توجها جديدا يبعد الأنظار في الليل وقت التهريب، بحركتها في زوايا مختلفة من الشرفة، ما يبعد الفضول من الحاضرين؛ تجنبا مما يلحقها من حرج، فاستثمروا بذلك النزعة النفسية لدى الحاضرين؛ لأجل تحرير المشروع المادي الغير شرعي. وبذلك يفهم أن الخارجين عن القانون كانوا لا يتورعون في إيجاد أية وسيلة، لتحقيق مآربهم ومنها هذه الوسيلة، التي يتعسّر على الآخر معها اكتشاف هوية الأنا المضمرة هنا وهو الزوج (المهرب).

ـــــ الفقراء في غرناطة:

كان لرحلة الحمراء أن تظهر خطاب الفقراء وأسلوب حياتهم، بصورة متفرّدة عن بقية الفقراء في أوروبا والعالم الجديد؛ إذ إن هؤلاء الناس اعتنقوا نزعة إنسانية واضحة، تجعلهم يأنفون من كلّ ما يشين إلى كرامتهم؛ لهذا لم يلهثوا كغيرهم خلف الدنيا، مع ما حاصرهم من فقر مقذع، ويبدو سبب ذلك في (أن إسبانيا هي البلد الوحيد الذي دخلت في مكوناته الثقافية بالإضافة إلى العناصر الغربية عناصر أخرى سامية في نفس لحظات تكوين الشعب الإسباني).[27]

لقد برزت لدى إحدى فئات تلك الطبقة الغرناطية الفقيرة، ونخص منهم (المعدمين ذوي الأصول النبيلة)، صفة الاعتزاز بأنسابهم الملكية المزعومة، ما جعله مبعثا للخمول والتأمل، الذي غزا حياتهم في كل مفاصلها؛ ليثير دهشة إيرفنيغ عند حديثه عن فقراء السلالة الملكية، بقوله: (كانت معضلة بالنسبة لي معرفة كيفية استمرار سلالات ملوك الإسبان، ولكنها مستمرة، والأسوأ استمتاع هؤلاء بوجودهم هذا. حيث تسير زوجاتهم في ساحات وطرقات غرناطة بمرح، وعلى يد واحدتهن رضيع وحولها نصف دزينة من الأطفال،

---

[26] الحمراء: 109_110.

[27] أثر الإسلام في الأدب الإسباني: 31.

والبنات العذراوات الأكبر يزين شعرهن بالورود، ويرقصن بالصنجات مرحا؟!! لذلك يمكن القول: إن الحياة تبدو كإجازة طويلة لطبقتين من الناس، الأغنياء جدا، والفقراء، فالأولى لا تحتاج أن تفعل شيئا، والثانية لأنها ليس لديها شيء لتفعله؟!).[28]

المعتقد أنّ ثمة أسئلة حائرة كانت تلوح في أفق إيرفنيغ، وهو يشاهد صورة هؤلاء المنحدرين من سلالة ملوك الحمراء، الذين أشاحوا عن الإجابات المقنعة للبؤس الشديد والعيال الكثيرة، والمتناغمة مع المرح الذي يلف النسوة وأطفالهن، والفتيات الجميلات الراقصات؛ ولعلهم اكتفوا من حياتهم بهذه الوسيلة التي تذهب الهموم وتجلب السرور، بما لا يسمح معه بالنقاش حول هذا التكيّف الاجتماعي، الذي لا يلتفت إلى عظمة الأجداد ومنجزات العصر التي أغفلوها في (إجازة طويل لأبدانهم وأفكارهم)، وطرحوا ما يحقِّق الغايات العليا، وهم قد تشاركوا مع الأغنياء في خمولهم. ولكن الأمر في حقيقته أعمق من ذلك، فهم ابتعدوا عن ذلك نتيجة السطوة الاجتماعية، التي خيمت على غرناطة المهملة من قبل الملوك الكاثوليك؛ بسبب انشغالهم بقضاياهم الخاصة. فما كان من هؤلاء الفقراء إلا الكشف عن الطرائق التي قد تحفز ذواتهم المهيضة ماديا، للتعالق الإيجابي مع الحياة المتوافرة، والمبادرة إلى صوغ أدبياتها الخاصة بثقافتهم، ومن ثمّ خمول سعيهم إلى اكتشاف ذاتهم وتنمية قدراتهم خارج ذلك كلّه، بما يتوِّج بمجهود يشكل جسر للتواصل، ما يصدق معه (إن المثل الاجتماعية الذي تقدمها الحياة المنزلية المبنية على علاقة متناقضة مع مبادئ العدل الاجتماعي، والأثر الذي تتركه لابد أن تؤث في طبيعة الإنسان ذاتها).[29]

وهكذا يدرك إيرفنيغ شيئا من حقيقة أولئك البائسين، وإن توهم عندما عللّها بظروف المناخ بغرناطة، في هذا المقطع: (إن فن أن لا تفعل شيئا، لا يتقنه أحد أكثر من الطبقات الفقيرة في إسبانيا، اللوم نصفه على الطقس ونصفه الآخر على الحرارة. فإذا أنت أعطيت (الإسبنيارد) الظل في الصيف، والشمس في الشتاء، وقليلا من الخبز والثوم والزيت، وعباءة قديمة وغيتارا، فليسر العالم بعدها كما يشاء، وهو لا يعتبر الحديث عن الفقر عارا؛ لأنه يجثم فوقه مثل عبائته، ويظل يعتبر نفسه شريفا وإن كان على البساط).[30]

ولكن الأمر أكبر مما يعتقده إيرفنيغ، فهؤلاء الفقراء لا يمكن أن يكونوا ضحية الطقس، ولاسيما أن غرناطة معروفة بطقسها المرموق، ما جعلها قبلة السياح، فضلا عن

---

[28] الحمراء: 69.

[29] **استعباد النساء: جون ستيوارت مل: 147.**

[30] **الحمراء: 69.**

أراضيها الزراعية الخصبة جدا؛ بخاصة أنه اعترف بحرمانهم، عندما قرّر (أنك لو أعطيت)، ما يؤشر الحيف الاجتماعي الكبير الذي لحق بهم، فما كان إلا أن تكلموا بما يفهموا، متجاوزين القواعد الضابطة لحركة المجتمع الغني، كذلك يلمس تلك الكرامة الكبيرة لديهم، فواحدهم (لا يعتبر الفقر عارا، فهو يجثم عليه مثل عباءته)، حيث الفقر المزمن، وما يقابله من سلوك طبيعي لم يجعله ينحرف اجتماعيا، كحال الخارجين عن القانون، الذين مرّت صورهم، بل كان الافتراض الذي قدّمه من الحصول على القوت اليسير (الخبز والثوم والزيت) والوسيلة المتاحة لديهم (عباءة قديم و غيتار)، ميدانا لتسهيل التواصل عبر هذه الوسائل للعيش والعمل الكريمين، وهنا ندرك الفوارق الكبيرة في هذه المستويات، التي لم يعمل بها في غرناطة، ولم يُدمج بوساطتها هؤلاء المعدومون، بوصفهم بشرا دفعوا ضريبة أندلسيتهم المتربص بها، بما شاهده ذلك المستشرق الأمريكي وخاض في تصوراته الذهنية، لهذه الأحوال العسيرة التي لم تمحق مرحهم الأندلسي، عندما وجدوه وسيلةً لنقل المشاعر الإنسانية.

كذلك نلحظ في رحلة الحمراء تلك العلاقة الوطيدة، بين الغرناطيين وحب الحياة والترحيب بالضيوف مع ما فيهم من فقر، بوصفه هوية حضارية موروثة قائمة بذاتها، تختلف عن الطبع الإسباني، ما ينقل الأعراف والمثل والأفكار بلغة لا تحتاج إلى دليل. فعندما كان هو ورفقاؤه بالقرب من القصر، تفيأ ظلال أشجار البرتقال على جدول ماء عذب، وأضاف (رافقنا بالجلوس عمال الطاحونة الذين تركوا عملهم للانضمام لنا، معبرين عن طبيعة الأندلسيين المستعدين للراحة دوما. وقد كانوا بانتظار الحلاق الذي يزورهم أسبوعيا لهندمة لحاهم. وبعد قليل وصل الحلاق، وهو صبي في السابعة عشرة من عمره، يركب حمارا عليه سرج قال: إنه اشتراه بسعر معقول، حوالي دولار واحد يسدده في عيد القديس جون (يحيى) حيث يجتمع لديه إلى ذلك الوقت مال كافٍ لتسديد أقساطه).[31]

إنّ المتأمل لواقع هؤلاء القوم الفقراء يلمس حدّة تماسكهم الاجتماعي، بخاصة في الترحاب بالضيوف والأنس بهم، ما يتبادر إلى ذهنه أسئلة مهمة، ومنها أن لا مناص من الراحة، التي يجدون لها طعما آخر مع ضيوفهم، كذلك لا قيمة للحياة من دون الاهتمام بالأبدان، وعدم حملها على ما لا تطيق، وهم يعبر عن حقهم الذي يجب أن يمارسوه، ويبرز لنا صورة جميلة أخرى، تؤكد الأصول الكريمة هؤلاء العمال الفقراء، حيث هندمة اللحى في أسبوعيا، وعدم إطلاقها بخلاف غيرهم من المجتمعات الإسبانية، بل وعلى يد حلاق (فقير

---

[31] المصدر نفسه: 31.

مثلهم) يأتي من مكان بعيد لهذا الشأن، وهم بذلك يعطون صورة مشرقة للطبقة العاملة الفقيرة، التي تبذل ما بوسعها في التعريف عن هويتها الأندلسية التراثية التي تتجاوز غيرها بكفاءة واضحة. وهكذا تمرّ معرفة أهمية الآخر وسنخ منظومته المتنوعة، من نوافذ الأنا المُشرعة مقياسا لأوجه التشابه والاختلاف والالتقاء والافتراق، عن المفاصل المهمة لواقعنا المعاش. ولعلّ من بين أهم ما يمكن أن تجلي حقيقة الأخر ونوازعه هي الرحلة؛ بوصفها (ذات طابع فردي ذاتي؛ لأن الكشف الخارجي الحقيقي لا يتأتى إلا بعد الكشف الداخلي).[32]

ولابد من الاعتراف أن خصلة الكرامة كانت تلوح في أفق هؤلاء الفقراء والمعدمين، وهو ما يعطي القيمة الروحية للغرناطيين الأندلسيين؛ لأنهم أبدوا كثيرا من المعطيات المتعلقة بإرث كبير، بما بلورتها القرون الثمانية التي حكم فيها العرب تلك البلاد، ومما يوضحّ ذلك قصة الشحّاذ الأبي، التي رواها لنا بقوله: (برز لنا شحّاذ يمشي وحيدا، وكأنه عائد من الحج، ومعه خبز رمادي عفن قديم، وبيده عصاه يتكئ عليها رغم أن الزمن لم يحنه بعد، إذ كان طويلا منتصبا أكل الزمن منه بشكل متناسب، ويعتمر طاقية أندلسية مستديرة، وعليه رداء من جلد الخروف، ويلبس بنطالا يصل إلى ركبتيه فقط من الجلد، تحته شراب وصندل، وبذلك بدا لباسه القديم محتشما...لكن مزاجنا كان يمكنه تقبّل مثل هذا الزائر، الذي يبدو كطالب صدقة مزيف. فأعطيناه رغيفا سميكا من الخبز ، وقليلا من خمر مالقا، فتقبلها شاكرا بصورة مقتضبة، ثم رفع الخمر إلى الضوء دهشا قبل تذوقها، وجرعها دفعة واحدة، وقال: لقد مضى مدة طويلة قبل أن أتذوق مثل هذه الخمرة، إنها منعشة لقلب رجل عجوز مثلي، ثم نظر إلى الرغيف، وقال: ليتبارك هذا الخبز .... وعرفنا منه أنه لم يكن شحاذا دائما بل يشحذ عندما تجبره الحاجة على مثل هذه المهانة، كما أعطانا انطباعا يدل على الصراع بين الجوع والكرامة، خاصة عندما تعرض عليه الأشياء لأول مرة).[33]

على ما في هذه الصورة من مأساوية مادية ومعنوية، إلا أنها تبرز دهشة كبيرة لدى هذا المستشرق الأمريكي، الذي اعتقد زيف حال ذلك الشحّاذ، وظن في بادئ الرأي أنه يتصنّع الحاجة، وهو يترك المجال لينفتح على إمكانيات متعددة لموازنة حاله مع ما ألفه من صور الفقراء السابقين الذين مرّ بهم، من خلال (المزاج) التي تغلّبت على (العقل)، ما أتاح إمكانية التعرّف على الحال اللافتة للنظر، ومن ثم قراءة متأنية لأوجها وملامحها؛ ليشير إلى

---

[32] الرحلة في الأدب العربي: 52.

[33] الحمراء : 38.

بعض مظاهر الحضور الذاتي لذلك الشحّاذ، فما كان إلا وقت يسير حتى عرف أن الشحاذة لم تكن مهنته، بل يضطر إليها عندما تجبره الحاجة على ابتذال الذات، وبذلك يضيف صورة جديدة لفقراء غرناطة، الذين تدفعهم الحاجة الشديدة، بما يدرك منها حقيقة المعوزين المضيئة؛ لأنه أعطى انطباعا إيجابيا، حول السجال بين الجوع والكرامة، والحقيقة التي تؤخذ بالحسبان أنه (كثيرا ما تلجأ الذات إلى تضخيم مزاياها ولو على حساب تبخيس الآخر، فما دام الدفاع عن النفس حسابا مشروعا، فكل أشرعته مشروعة ومبررة).[34] وقد أحسن ذلك الشحاذ تطبيق هذه النظرة، من خلال ما أتى به للبرهان على شأنه، بهذه الصورة المتوازنة بمجموعة حجج مرتبة بطريقة تحقق درجة عالية من الإقناع، عندما قصد إثبات شخصيته، حيث السلام والامتناع عن قبول الأشياء من الغرباء والدعاء، ما خلق آفاقا من الاحتمال في رأس محاوريه الغربيين.

ـــــــ صورة المرأة الغرناطية:

يرتبط تحديد منزلة المرأة ومكانتها في المجتمع، بمقدار ما يحمله من نظرة نحوها، وهذه الأخرى تمرّ من بوابة الثقافة التي يُوسم بها المجتمع، وعليه فإن صورة المرأة تتبع حركة المنظومة الثقافية والمرجعية المعرفية في كلّ زمان ومكان. وعند تتبع مسيرة المرأة الأوروبية ومنها الإسبانية في القرون الوسطى، نجدها مسيرة متعثرة بسبب النظرة الرجعية، التي لم تسمح بالتعبير عن متطلبات الذات وطموحها، ما أنزلها درك التهميش إزاء منزلة الرجل، فكانت عرضة للإهمال والسخرية بل والاتهام أحيانا؛ إذ إن مما (يستدعي الغرابة أن هناك من كان يعتبر امرأة إنسانا آخر، فالمجتمع الأوروبي في القرون الوسطى كان لا يرى في المرأة إنسانا كاملا، كما كانت الكنيسة تحملها كل مصائب الدنيا وتنعتها بألقاب لاذعة).[35]

وهكذا لم تألف مجتمعات أوروبا، بروز مفكرات أو كاتبات أو عالمات ضمن حواضنها عامة، ومنها مجتمع غرناطة في القرن التاسع عشر، بخلاف الحال الذي شهدته تلك المدينة الشامخة في أيام العرب. وقد عرض كاتبنا بنحو كبير، صورا كثيرة لتخلف الذهنية الإسبانية فيما يخص وضع المرأة، التي صاغت مواقف الغرناطيين نحو حقوق المرأة وواجباتها، والتي لا تتيح لها تجاوز الخدمة في البيوت. وبيّنت مقدار الحيف الكبير

---

[34] الأنا والأخر ودورها في تحديد العلاقة بين الوطن العربي والغرب: 8.

[35] حب الآخر في الشعر الأندلسي والبروفنسي: د. محمد عباسة: 8.

الذي أصابها؛ بسبب حرمة التحاقها بالتعليم، علاوة على ضعف ثقافتها المعرفية والاجتماعية. حتى وصل الحال إلى زيهن المتخلّف، ومنهن الغرناطيات، إذ وصف ذلك بقوله: (أما النساء فلا زلن يعتمرن الباسكويتا ربما لأن الأزياء الباريسية لم تصلهن بعد).[36]

فمن الصور القاتمة التي وردت في الرحلة، صورة حرمان المرأة من الحب والتعلّق بمن تحب، وقد عدّ ذلك جريمة كبيرة في نظر الآباء، الذين ما عليهم سوى إقحام بناتهم في غياهب الكنيسة عند اكتشاف أمرهم؛ ليبرهنوا على أن موقفهم من المرأة، أبعد ما يكون عن الإحساس بمشاعرها الفطرية النبيلة، التي تذبح بلا رحمة عندما (تتحول إلى الرهبنة)، بحيث تعزل عن ملذات الدنيا وسرورها، كما يذكره قوله: (بينما كنت أراقب بمنظاري المكبّر طرقات البائسين، لاحظت إجراءات لبس الحجاب التي تحدد مصير شابة صغيرة، تحصل لدفنها حية في الوجود. ومن شدة تعاطفي معها، تصورتها شابة جميلة، لما تؤكده لي وردية خدودها، وتدل على أنها ضحية وليست متطوعة، ثم غطيت بعد ذلك برداء، وكللت بطوق من الزهور بخبث روحي، كان قلبها ضدّه، وحتما يهتف بحب واقعي أرضي. وبجانبها رجل طويل حاد القسمات يمشي بتؤدة، فهو حتما والدها الطاغيةــ والذي يقوم بهذه الأضحية لدافع مجهول، رغما عن شاب أسمر يلبس عباءة أندلسية، ويبدو أنه يجحدها بنظرات الحزن، فهو لاشك عشيقها السري الذي ستفترق عنه إلى الأبد، ومما زاد في تحفزي، تلك النظرات الشريرة التي يرمقها بها الآباء المعمدون والفرير لحظة وصول الموكب إلى كنيسة الرهبنة، حيث تلمع الشمس آخر مرة على هذه الضحية المسكينة قبل دخولها الكنيسة. وين توقّف عشيقها لبرهة أمام الباب، أحسست بمشاعره التي سيطر عليها، ثم دخل وصورت نفسي الكثير من التعارضات في الداخل، حيث ستخلع هذه المسكينة، كل أردية الزينة، لتلبس لباس التحوّل إلى راهبة بجلبابه الواسع، ويأخذ منها القائمون على الكنيسة القسم بعد ذلك، ويحلقون شعرها الحريري الناعم).[37]

تظهر هذه الصور المأساوية و الشجية لتلك الفتاة الغرناطية، عاطفة الحب أمرًا بعيد المنال بل جريمة تؤدي إلى عقوبات صارمة من الآباء المتنطعين، وهو ما يشكّل انعطافا سلوكيا مقيتا، أبداه هؤلاء الذين يجيدون ردّات الفعل العنيفة، نحو فلذات أكبادهم تحت مسميات الطهارة؛ لتنتهي معها قصة الحب عند الإنسان الغرناطي، الذي يعجز عن تحريك ساكن وهو يرى المعشوقة، تسير بقدميها إلى مثواها الأخير (الكنيسة)، تحت نظرات

---

[36] الحمراء:35.

[37] المصدر نفسه: 108.

المتهافتين على هذه المجزرة الروحية، وقد دفع هذا المنظر الرهيب أديبنا إلى إعمال الخيال، فيما توارى عنه عند دخول تلك الضحية الإنسية إلى الكنيسة، من خلال الطقوس المعتادة التي تذهب بنضارة تلك الضحية الشابة؛ لترسلها إلى عوالم الوحدة والانعزال التام عن الحب والتفكير بالعائلة، وهو أمر يسهل التسليم بتحققه في المجتمع الغرناطي إلى حد ما، الذي أعلن نواياه وشعاراته الازدواجية في النظرة المجحفة للمرأة إزاء الرجل؛ نتيجة ما يعتقدون من حفاظ على الثقافة الكاثوليكية، فكان لرحلته إلى الحمراء أثر في بيان حال المرأة العاشقة، بهذا السرد الممزوج بالخيال المغذي لقنوات التواصل مع نتاج الرحلة، بما (تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى علم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني، وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب، من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف وغيره).[38]

وعند التأمل في جانب آخر من حياة المرأة في غرناطة، نألف أدعياء النسب الملكي منهن،وهن يقاسين تضعضعا اجتماعيا رهيبا، ولكنه لم يمنعهن من المرح، والتحليق في عوالم القصص الطريفة، كـــ(ماريا انطونيا سابونا)،التي (تسكن غرفة أشبه بخزانة تحت الدرج، وتجلس طوال النهار على صخر الدهليز المجاور تغزل الصوف، وتغني من الصباح إلى المساء، مستعدة لأن تمزح مع كل من يمر، لأنها أمرح كل النساء رغم كونها أفقرهن. كما أنها تتمتع بموهبة قصصية، فلديها قدرة على اختلاق حكايا تفوق حكايا ألف ليلة وليلة. وقد سمعت بعض حكاياتها في حلقة العمة أنطونيا المسائية، أحضرها بتواضع المستمع. وأشعر بضرورة وجود نوع من الموهبة عند هذه المرأة الصغيرة الحجم الكبيرة السن، تمكنها من سرد كل هذه الحكايات الخيالية، كم أنها تجسد كل حظ عاثر وقبح في الحجم الصغير والفقر؛ حين تعد لك خمسة أزواج تعاقبوا عليها، وتضيف خمسة ونصفا، أما هذا النصف فهو الزوج الذي مات أثناء حفل زواجه منها).[39]

لعل المشكل الغريب الذي واجه إيرفنيغ، كان يتمثل في المرح الغرنـــاطي المرافـــق للمتناقضات، فيما يخص هذه المرأة في كثير من الصفات الجسدية والمعنوية، التـــي بـــدأت تأخذ مساحة أكبر من التفكير لديه، لدرجة الانبهار بما تروي من قصص تفوق قصص ألف ليلة وليلة، ولعلّها بذلك تخفف من اعتصار الألم على ظروفها البائسة، التي لم تقف حائلـــة إزاء التعبير عن حبها للحياة؛ لتعلن عما هو إنساني يتجاوز واقعه وحقبته، ما يمكّن من فك

---

[38] أدب الرحلات عند العرب: د. حسني محمود حسني: 10.

[39] الحمراء: 68.

الخلط بين هذه الأمور المتداخلة. بل أفصحت عن صورة مشرقة حيث الغناء والمرح والسرد القصصي البديع، الذي حمل أديبنا على التفكير بضرورة وجود عنصر أنثوي، يمثل المرجعية الفطرية التي ينبغي أن يتحدد على ضوئها، معايير الإبداع التي تمزق شرنقة الفقر المزمنة. وقد عزز ذلك حضوره عددا من جلساتها المسائية، وهو ممثل للدولة الأمريكية على التراب الإسباني كافة، فنجحت في استمالته إلى عالمها. وانتزعت منه الإعجاب على ما فيها من مآسي، تحدثت عنها بطرافة عالية نقل لنا إحداها، وهي قصة الأزواج الخمسة والنصف المبتكرة. والحقيقة التي يجب أن تؤخذ بالحسبان، وهي أن سكنة قصر الحمراء عامة والنساء خاصة، كانوا على درجة كبيرة من الذكاء الفطري والمرح والكرامة الروحية، التي ورثوها من بيئتهم العربية، وقد حافظوا على منهاج أسلافهم، وأبرزوه في صورة مفعمة يدركها الوافدون على مدينتهم، الذين لا يخفون إعجابهم بالشخصية الغرناطية، ومنها صورة المرأة على ما لحقها من جهل مقصود، وقد أوضح إيرفنيغ تلك الحال بقوله: (الأسبان يتمتعون بذكاء فطري يجعل منهم أناسا جيدي الصحبة، مهما نقصت مرتبتهم الاجتماعية أو ثقافتهم. زد على ذلك عدم تهتكهم، لما هو مطبوع بهم من كرامة روحية وراثية، والفاضلة العمة انطوينا من هذا النوع غير المثقف، وكذلك لامعة العينين دولوريس قليلة الثقافة، فهي لم تقرأ أكثر من كتاب أو كتابين أو اثنتين في كل حياتها، مما جعلها خليطا من السذاجة والحس المرهف. إذ تفاجئني غالبا بتعبيرات تدل على حس جمالي عال).[40]

تستند صورة الثقافة الفطرية الرشيقة للغرناطيات التي يلمسها الوافد، من خلال الحوار معهن، الذي يقطع الشك عند الآخر من احتمالية لحاق بؤس ثقافي بهم يوازي بؤسهم الاجتماعي، ما يعزز أن تلك النسوة المحرومات من إكمال تعليمهن، كن في سعي حثيث للحصول على الاجتهاد الاجتماعي، الذي بان هنا عند العمة أنطونيا، بخبرتها الطيبة في التعامل مع الآخر، وكذلك مع الفتاة دولوريس (قليلة الثقافة) بالنسبة للتعليم النظري، فكانت أنموذجا للفتاة الغرناطية التي تمزج بين السذاجة والحس المرهف، ولكنها كانت تبرع في الحوار مع (الآخر). الذي يتم بضرب من التعبيرات الجمالية المتقنة، ما أحار أديبنا في طبيعة المكونات الذاتية التي تتأرجح في مقوماتها المختلفة. والأكيد أن لعالم الفقر الذي حاصر الغرناطيات، أثر كبير في ابتعادهن عن المدنية الأوربية حينذاك، ولو توافرت لديهن شيئا منها؛ لارتفعت وتيرة التفرّد النظري والعملي عندهن، ولتفوّقن على مثيلاتهن الأوربيات والأمريكيات، ولاسيما أنهن تمتعن بذكاء فطري ولطف عشرة على اختلاف

---

[40] الحمراء: 65.

مرتبتهن الاجتماعية، ولكن كيفما كان الأمر فهمّهن الأكبر هو لقمة العيش، كما تقرّره في حديث أنطونيا ودولوريس وماريا، بوصفهن أنموذجا للكيان الغرناطي الذي ابتدع (عبر أجياله الثلاثين نموذجه المتفرّد في الفكر والذوق والحياة، مارس أشواقه في تشكيل الطبيعة وصنع الحضارة، وكتابة التاريخ الإنساني المجيد، ربط بين الشرق والغرب، طرح ثمرات المعرفية والإنسانية، وألف منظومة من القيم ورؤية للكون، لم تستطع صراعات العقيدة ولا حروب المجلات الحيوية، أن تطمس شيئا جوهريا في صميمها، يمثّل هذه النواة المشتركة للثقافتين العربية والإسبانية).[41]

ومن هنا نلمس صورة المرأة الغرناطية، وهي تعلن عن حاجتها لمنجز حضاري، يخلق مشروعا متوازنا من الحوار والتفاعل والتعاطي الإيجابي بين الحضارتين العربية والإسبانية، في أجيال ثقافية رفيعة تؤمن بتكريس التعددية. على الرغم من الصراعات المزمنة، التي لم تغادر الطرفين لقرون ثمانية. وفي ضوء ذلك نجد مساحة من العفوية لدى العمة أنطونيا والفتاة دولوريس، التي واجهت الذهنية الغربية بعفوية كحال بنات جلدتها، ما استثارت إيرفنيغ وهو ما بان في ردُّة فعل متوازنة بعدما لمس الجد في كلام الحاكم، فكانوا (واثقين من أن لنا صديقا سيساعدنا في هذا الأمر من القصر هو لا معة العينين دولوريس التي التي أظهرت لنا طيبتها من أول لحظة، متمنية عودتنا إلى القصر بلغة عينيها الثاقبتين. وهكذا سار كل شيء على ما يرام، فالعمة أنطونيا قامت بفرش الشقّة، رغم كل تأكيدنا بأننا مستعدون أن ننام على الأرض، وعدم مطالبتها بأكثر مما تؤديه بطريقتها البسيطة في تهيئة الغرفة).[42]

لقد أزاحت هاتان المرأتان الغرناطيتان، ذلك التشتت في التفكير لدى إيرفنيغ ورفقاؤه، ولكن هذه المرة بلغة العينين الواثقتين، في التعبير عن طيبتها وفرحها بهم ورغبتها بجوارهم، وهي بذلك تعتمد على القوى الفكرية في حسم نزولهم؛ لتظهر بذلك عدم الحاجة إلى الكلام، وبهذا ندرك الشأن الذي كان للمرأة الغرناطي، والاعتماد الكبير لهذا الحاكم عليها، في استقبال الضيوف، وإدراكها التام لما عليها أن تقوم به، وتمتعها والعمة أنطونيا بقوى فكرية صادقة ترتبط بطبيعتها الحضارية، في تجاوز أوهام الآخر، بحيث تغرز فيه ماهية الذهنية الأنثوية المتسامحة.

---

[41] أشكال التخيّل من فتات الأدب والنقد: د. صلاح فضل: 66.

[42] الحمراء: 62.

ـــــ ختام:

بعد أن أزف البحث من محاورة مصطلح صورة الآخر، والوقوف على آفاقه عند الغرناطيين، من منظور المستشرق الأمريكي واشنطن إيرفنيغ، فإن للباحث أن يدلوا بما جاد به ذلك المنظور، الذي عايش المجتمع الغرناطي في القرن التاسع عشر، وعلى النحو الآتي:

ـــــــــــ استند مفهوم الآخر عند إيرفنيغ إلى ما يفيض عن خصوصيته الذاتية، من تجارب وأفكار غرناطية ذات طبيعة مركبّة، حيث الخبرات والأفكار والسلوك، التي تعزز الحدود الذاتية لقضايا الفرد والمجتمع على حد سواء، بوساطة الرؤية الخارجة عنها.

ـــــــــــ ظهرت صورة السلطة بغرناطة ضعيفةً متأرجحةً، ولم تستطع أن تفرض هيبتها على أتباعها، ما عمل على تشتت الأمور، وعبث الرعية، وتضعضع الحكّام، المتصارعين فيما بينهم، ومع ذلك اعتصموا بأريحية أندلسية مع رعيتهم و مع الوافدين.

ـ نشط الخارجون على القانون في حراكهم، فمثلّوا تهديدا حقيقيا لغرناطة والوافدين عليها، وانشطروا على قسمين، الأول: قطّاع طرق ذوو منهجية صارمة، تقرّر ضرورة مراعاة حقيقة خروجهم؛ ليعلنوا عن قصديتهم وأهدافهم من ذلك الخروج بصراحة، و والآخر: مهربون أخفوا حقيقتهم بصور مختلفة وطريفة؛ لاستغفال السلطة والهرب منها.

ـ كان فقراء غرناطة على جانب كبير من سذاجة الرأي وطرافة السلوك، إلى الحد الذي لم يعبئوا فيه من حالهم الكسيرة، بل كانوا يركنون إلى الأصول النبيلة المزعومة، فضلا عن

الدعة التي أوجدوها لأنفسهم، ولأسرهم من خمول طويل للرجال وجولان النساء ورقص الفتيات. مع حرصهن على كرامتهن التي لا يزايدن عليها.

_عانت المرأة الغرناطية التخلّف الثقافي؛ نتيجة حياة البؤس التي طبعت المجتمع الغرناطي بصورة عامة، ومع هذا فقد أظهرت كفاءة اجتماعية طيبة، مكنتها من استمالت الآخر الوافد؛ بحسب الذهنية السياحية التي انمازت بها نساء غرناطة.

ـــــ مصادر البحث ومراجعه:

ـــ أثر الإسلام في الأدب الإسباني: د. لوثي لوبيث بارالت، ترجمة: د. حامد يوسف أبو أحمد، مركز الحضارة العربية، ط1، القاهرة، 2000.

ـــــ أخبار سقوط غرناطة: واشنطن إيرفنيغ، ترجمة: د. يحيى هاني نصري، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، بيروت، 2000.

ـــــــ أدب الرحلات عند العرب: د. حسني محمود حسني، الهيأة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976.

ـــــ استعباد النساء: جون ستيوارت مل، ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1998.

ـــــ أشكال التخيّل من فتات الأدب والنقد: د. صلاح فضل، الشركة المصرية العالمية للتوزيع والنشر لونجمان، ط1، الإسكندرية.

ـــــ انبعاث الإسلام في الأندلس: د. علي المنتصر الكتاني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2005.

ـــــ الرحلة في الأدب العربي: نصر عبد الرزاق الموافي، مطابع الوفاء، المنصورة، 1995.

ـــــــ الحمراء: واشنطن إيرفنيغ، ترجمة: عبد الكريم ناصيف، د. هاني يحيى نصري، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، 1996.

ـــــــ فن المقال: د. محمد يوسف نجم، دار الثقافة، بيروت، 1966.

ـــــــ محنة الموريسكوس في إسبانيا: محمد قشتيلو، مطابع الشويخ، ط2، تطوان،1999.

ـــــــ البحوث المنشورة في الدوريات الجامعية وغيرها:

ـــــــ الأنا والآخر ودورها في رسم وتحديد العلاقة بين الوطن العربي والغرب: د. إياد عمّاوي، موقع المنشاوي للدرسات والبحوث، www.minshawi.com.

ـــــــ ثقافة الحوار مع الآخر: د. حسين جمعة، مجلة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث والرابع، 2008.

ـــــــ حب الآخر في الشعر الأندلسي والبروفنسي: د. محمد عباسة، حوليات التراث، العدد الرابع، دمشق، 2005.

ـــــــ صورة الآخر في ألف ليلة وليلة: د. ماجدة حمّود، مجلة جامعة دمشق المجلد 27، العددان: الأول والثاني، 2011.

ـــــــ صورة الآخر في التراث الجاحظ نموذجا: د. ماجدة حمّود، مجلة الدراسات الأدبية واللغوية، دمشق.

ـــــــ صورة الشرق لدى هارمان هيسه: د. ماجدة حمّود، مجلة جامعة دمشق، العدد 19(1+2)، سنة 2003.

ـــــــ صورة الغرب في الأدب العربي رواية فيّاض لخيري الذهبي نموذجا: د. غسّان السيد، مجلّة جامعة دمشق، المجلد 24، العدد الثالث والرابع، 2004.